

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي

ظاهرة تكريم الأولياء نموذجاً

أ.د. سعاد عثمان*

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى التعرف على كيفية استمرار التراث الثقافي غير المادي حياً بأدائه لوظائفه، وإعادة إنتاج بعض عناصره من خلال عمليات أهمها: التواتر والاستعادة والإضافة بالإبداع والتجديد، أو بالاستعارة أو بغيرها أو بحذف عناصر كانت موجودة وإضافة عناصر أخرى جديدة لتصبح الظاهرة أكثر ملاءمة للواقع المعاش.

ولتحقيق هذا الهدف، كان اختيار موضوع الاعتقاد في الأولياء فقد كان موضوعاً لرسالة الماجستير لكاتبة السطور أحيى سنة ١٩٨١، وتم نشر الرسالة في ٢٠١٤. وفي عام ٢٠٠٩ قمت بدراسة استطلاعية في نفس مجتمع الدراسة -حي الخليفة- لبعض الأضرحة التي سبق دراستها. وهي أضرحة السيدات: نفيسة، وسكينة، ورقية، والإمام الشافعي، والولي الطفل "الشيخ أشرف".

وتتلخص مشكلة البحث في محاولة تتبع أهم ملامح استمرار الظاهرة، والوقوف على أهم عوامل وعمليات وآليات إعادة إنتاجها، حيث اعتمد البحث في جانبه النظري على قضايا نظرية إعادة إنتاج التراث، وفي جانبه المنهجي على المنهج الأنثروبولوجي بأدواته وأهمها الملاحظة، والمقابلة المتعمقة.

ويقدم البحث رسداً وتحليلاً نظرياً لبعض الممارسات المرتبطة بالأضرحة، وتتلخص خطة الكتابة في تتبع بعض هذه الممارسات وهي: الوظائف الدينية والاقتصادية والترفيهية والعلاجية، مع إشارات سريعة للوظيفتين الاجتماعية والسياسية، وفي كل وظيفة تم اختيار موضوعات محددة فمن الأنشطة الدينية تم اختيار موضوعي الزيارة، وكرامات الأولياء، ومن

* أستاذ علم الاجتماع كلية البنات جامعة عين شمس

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا
الأنشطة الاقتصادية كانت النذور، وإقامة الخدمات لزوار الأولياء مع الاهتمام ببعض
الأنشطة الترفيهية والعلاجية والاجتماعية والسياسية.

الكلمات الدالة:

التراث الثقافي - كرامات الأولياء - الأنشطة الدينية

Reproduction of Intangible Cultural Heritage The Phenomenon of Glorifying Al-Awliya (holy persons) as a Model

Abstract

This research aims to identify how the intangible cultural heritage continues to be alive by performing its functions and reproduces some of its elements through processes. The most important elements are frequency, retrieval, addition by creativity and renovation, borrowing or deleting existing elements, and adding new ones to make the phenomenon more suitable for living reality.

To achieve this aim, the choice of the subject of the belief in Al-Awliya (holy persons) was the subject of the Master's thesis by the author in 1981 and published in 2014. In 2009, the conducted an exploratory study of the same community Al-Khalifa district in with some of shrines were previously studied. These are the shrines of Alsayeda Nafisa, Alsayeda Sukayna, Alsayeda Ruqqaya, Imam al-Shafie and "Al-Sheikh Ashraf" child wali (holy child).

The problem of the research is to try to observe the most important features of the persistence of the

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا
phenomenon, and identify the most important factors,
processes and mechanisms of reproduction. The research,
in its theoretical part, relies on the issues of the theory of
the reproduction of heritage. In its methodological part, the
research is based on the anthropological approach with its
tools, the most important of which are observation and in-
depth interviews.

The research provides monitoring and theoretical
analysis of certain practices associated with the shrines.
The writing plan is to follow these practices: religious,
economic, recreational and therapeutic functions, with
quick references to the social and political ones. In each
function, specific topics are selected. The topics of
visitation and karamat (miracles) Al-Awliya were chosen
from religious activities. Among the economic activities
are nuzour (alms) and providing services to visitors, with
attention to some recreational, therapeutic, social and
political activities.

Key words: Cultural Heritage – Karamat (miracles) Al-
Awliya (holy persons) – Religious Activities

المقدمة:

يهدف هذا البحث إلى محاولة التعرف على كيفية بقاء التراث الثقافي غير المادي حيا من خلال عمليات إعادة الإنتاج التي تتم "على فترات طويلة من الزمان، وتتطلب ما هو أكثر من مجرد إعادة الإنتاج المادي (أفراد جدد) وإنما نقل ثقافة المجتمع إلى الجيل الجديد". إدجار، أندرو. وسيد جويك، بيتر. ٢٠٠٩ : ٨٧)، ولتحقيق هذا الهدف كان اختيار موضوع الاعتقاد في الأولياء، فقد كان موضوعا لرسالة الماجستير (عثمان، سعاد. ٢٠١٤) لكاتبة السطور، أجزيت في سنة ١٩٨١ وتبعته بعد نحو خمس وثلاثين سنة وبالتحديد في عام ٢٠٠٩. بدراسة ميدانية في نفس مجتمع الدراسة-حي الخليفة- لبعض الأضرحة التي سبق دراستها وهي أضرحة السيدات: نفيسة، وسكينة، ورقية، وضريح الإمام الشافعي، والولي الطفل "الشيخ أشرف".

وتتلخص مشكلة البحث في محاولة تتبع أهم ملامح بقاء واستمرار الظاهرة وتغير وتجديد بعض عناصرها، والوقوف على أهم عوامل وعمليات وآليات إعادة إنتاجها. وذلك بالاعتماد على قضايا نظرية إعادة إنتاج التراث، وعلى استخدام المنهج الأنثروبولوجي بأدواته وأهمها الملاحظة، والمقابلة، والتصوير الفوتوغرافي.

لذا يقدم البحث تبعا لبعض الوظائف والطقوس والممارسات المرتبطة بالأضرحة المذكورة- في مجتمع الدراسة- حيث تتلخص خطة الكتابة في تتبع بعض الممارسات المرتبطة بأهم وظائف الظاهرة وهي الوظائف: الدينية، والاقتصادية، والترفيهية، والعلاجية، مع إشارات سريعة للوظيفتين الاجتماعية والسياسية، وذلك في محاولة للإجابة عن التساؤلات التالية:

- ١- إلى أي مدى حافظت ظاهرة تكريم الأولياء على استمرارها وبقائها؟
- ٢- إلى أي مدى استمرت الظاهرة في أداء مختلف وظائفها؟
- ٣- ما أهم ملامح إعادة إنتاج الظاهرة، وما أهم عوامل وعمليات، وآليات إعادة إنتاجها؟

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا

ومع محاولة تتبع بعض تفاصيل الظاهرة بين الماضي والحاضر في بعض أضرحة أولياء حي الخليفة، أسفرت ملاحظة الواقع عن النتائج التالية:

أولاً: الوظيفة الدينية:

استمرت ممارسة معظم الطقوس الخاصة بالوظيفة الدينية للظاهرة كالزيارة وإقامة الحضرات وحلقات الذكر، والصلاة والوعظ وتلاوة القرآن وغيرها، وسوف تهتم الفقرات التالية بموضوعين اثنين فقط من بينها، وهما: الزيارة، وكرامات الأولياء.

١- الزيارة:

مازال زوار الأضرحة يترددون عليها طوال أيام الأسبوع، وتزداد أعدادهم في اليوم المحدد والمفضل لزيارة كل ولي، وإن اختلفت كثافة أعداد الزوار بين الأضرحة. فقد أسفرت الدراسة التتبعية لبعض أضرحة حي الخليفة عن زيادة أعداد هؤلاء عند ضريح السيدة نفيسة، يليه السيدة سكيينة، ورقية، والإمام الشافعي ثم الشيخ أشرف. ومن حيث أهم خصائص هؤلاء الزوار فإنهم ينتمون إلى الجنسين، وإلى مختلف الأعمار وإن كانت فتى الأطفال من الجنسين، والشابات هما الأكثر تردداً في كافة الأضرحة. ومع تفضيل زيارة البعض للأضرحة الكائنة في أحيائهم أو بالقرب منها، فضل آخرون زيارة الأضرحة البعيدة " البعيد سره باتع"، وقد أكدت بعض زائرات السيدة سكيينة ونفيسة ذلك - من مستويات اجتماعية وسطى - مؤكدات بأن زيارة الولي البعيد، والدعاء فيه وقراءة القرآن بين جنبات ضريحه، يحقق لهن أمنياتهن غالباً. وبسؤالهن عن إمكانية تأديتهن نفس الممارسات في بيوتهن أجبن أنهن يفضلن الأضرحة فهي الأكثر هدوءاً من بيوتهن، وهي أماكن طاهرة، و"الست كويسة"، ولا يعكر صفو الدعاء أي زائر أو جرس يُدق للباب أو للهاتف، كما يصبح بمنأى عن أعين الجيران والمعارف. وهو ما يعبر عن هروب البعض من أوضاعهن السكنية، والرغبة في التمتع بقدر من الخصوصية والهدوء.

والجدير بالملاحظة بعض الأضرحة قد حققت تزايداً في أعداد زوارها مع اختلاف بعض خصائصهم ومنها ضريح السيدة رقية، الذي توافد لزيارته أعداداً أكثر مما كان في

الماضي معظمهم من العراق والهند وباكستان وأندونيسيا وماليزيا، يأتون للزيارة فرادى وجماعات، وربما كان لهجرة العراقيين إلى مصر في أعقاب الحرب العراقية، وتزايد الوفود السياحية القادمة من جنوب شرق آسيا- في تلك الآونة- وهي فئات ينتمي بعضها إلى المذهب الشيعي، قد يكون لذلك أثره على مثل هذا الإقبال.

ومن أهم الممارسات التي أعيد إنتاجها - ولم تكن موجودة في الماضي - وأمكن رصدها في أضرحة مشاهير الأولياء - السيدة نفيسة والإمام الشافعي - تخصيص باب لدخول النساء للزيارة منفصلاً عن البوابة الرئيسية التي أصبحت مخصصة فقط لدخول الرجال. وفي داخل الجامع وضعت حواجز خشبية تمنع الزوار من الجنسين من الاختلاط أثناء الطواف حول الضريح، وبالتالي تم تحديد مكان صغير للنساء يمكنهن من خلاله لمس المقصورة - وهو ما أدى إلى تزامهن في طابور انتظارٍ للمس المقصورة أثناء الدعاء - بينما ترك باقي المقصورة للرجال، هذا على الرغم من أن الإناث هن الأكثر تردداً وحرصاً على إجراء طقوس الزيارة والدعاء. والجدير بالملاحظة المكان المخصص للنساء في ضريح الإمام الشافعي - بعد إجراء نفس التعديل - وبمكهم فيزيقيته يجعل وجوه الزائرات متجهة إلى الضريح بينما ظهورهن في جهة القبلة، بينما تتجه وجوه الرجال إلى الضريح والقبلة معاً. ويمكن تفسير فصل مداخل النساء عن الرجال، وتخصيص أماكنهن داخل الأضرحة، بأنه يرجع إلى تأثيرات المد الديني السلفي في العقود الأخيرة، الذي نظراً لرفضه التام للظاهرة برمتها فقد استجاب القائمون على الأضرحة لأفكارهم الخاصة بأهمية عزل النساء عن الرجال في الأماكن العامة وفي غيرها حتى وإن أدى هذا إلى التخلي عن بعض شروط الممارسات الشعبية الاعتقادية التي كان زوار الأولياء يحرصون عليها في الماضي مثل الطواف حول المقام أو توجيه وجه الداعي إلى القبلة، أو غيرها.

أما عن الطقوس الخاصة بأداب الزيارة، فقد استمر معظمها كالبداية والسلام على الولي عند الدخول، وقراءة الفاتحة، والصلاة ركعتين تحية للمسجد، والتوجه إلى المقصورة للدعاء. ومازال الدعاء هو الطقس الديني الأساسي للزيارة، حيث يفضل بعض زوار الأضرحة

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا

الدعاء بأدعية تلقائية يعبرون من خلالها عن كل ما تجيش به نفوسهم وقلوبهم وعقولهم، بينما يفضل آخرون أدعية نمطية تلتزم بنص محدد يمليه على الزائر أحد خدام الضريح، أو يمنحه إياه في ورقة أو كتيب صغير. ولم تقف استمرارية الدعاء عند حدود نصه بل تعدتها إلى أهمية تكراره لعدد محدد من المرات، فقد نصح خادم ضريح السيدة نفيسة زوار الضريح بأن يبدؤوا الدعاء بقراءة الفاتحة ثم تكرر "سبح اسم ربك الأعلى" (١١ مرة) ثم قراءة سورة الإخلاص (١١ مرة) مع وهبهم للسيدة نفيسة، بعدها يدعو الزائر "كم حاربتني شدة بجيشها فضاك صدري من لقائها وانزعج حتى إذا يئست من زوالها جاءني الألطاف تسعى بالفرج" (وترديده ١٨ مرة) ثم يدعو ما يريده من أدعية وأمنيات يتمناها، بعدها يجب عليه أن يقدم للضريح أو لخادمه أو لزواره ما يستطيع من نفحات، وبمقارنة ذلك بما كان يحدث في الماضي يتضح ثبات ممارسة الدعاء بنفس نصه، وعدد مرات تكراره مع تغير توقيت تقديم النفحة الذي أصبح في أول زيارة للزائر، ثم بعد تحقق الأمنية.

٢- كرامات الأولياء:

مازالت كرامات الأولياء التي كانت تروى في الماضي مستمرة حية يرويها خدام الأضرحة، وبعض روادها. وهي تعكس قدرات مختلفة علاجية، أو في مجال حل بعض المشكلات الاجتماعية والأسرية والاقتصادية وغيرها، إضافة لذلك، تبعد العقلية الشعبية وتلحق بشخصية الولي قدرات إعجازية جديدة. وسوف نتخذ مما روي عند ضريح الشيخ أشرف نموذجاً لمثل هذه الإبداعات، فقد نسب والد الشيخ أشرف - مازال حيًا يرزق - إلى ابنه بعض القدرات الجديدة سواء أثناء حياته أو بعد وفاته، فأثناء حياته ذكر أنه كان يختفي ثم يظهر فجأة أسفل سريره، وأنه كان يتحدث اللغة العربية الفصحى بطلاقة، كما حفظ القرآن كاملاً - توفي الولي الطفل وهو في سن الرابعة - والده كان يسمع أصواتاً لأناس يتحدثون إلى ابنه وهو بمفرده، وعند دخول الأب لا يجد أحداً، الابن كان وارثاً للتصوف بدليل تفضيله ارتداء زي الصوفية - كانت للطفل الولي صورة يرتدي فيها زي الصوفية كانت تطبع في الماضي على دعوة المولد، واستبدلت حالياً بصورة والده كما كانت ومازالت تعلق

داخل ضريحه، فقد حكى والد الشيخ أشرف -حاليا- أنه في يوم التقاط هذه الصورة أراد هو وشقيق الشيخ أشرف أن يكونا معه في نفس الصورة لكنه رفض بشدة ولما أصرا على ذلك انقطعت الكهرباء، ولم تعد إلا بعد أن تركوه للصورة بمفرده حيث التقطت الصورة وسط دهشة الحاضرين، ومن الكرامات الجديدة التي أبدعها والد الشيخ أيضا والتي تتعلق بكراماته بعد وفاته أنه جاء في الرؤية لاثني عشر شخصا في ليلة واحدة محمدا لمكان فسيح بعينه، طالبا أن يبني فيه ضريح جديد، إضافة لأنه "أشر" في الفيوم، وماليزيا وسوف تبني له أضرحة جديدة هناك، كما أبدع الوالد كرامات أخرى فالأرض التي دفن فيها عقب وفاته هي أرض مباركة عاشت فيها في الماضي سيدة سالحة اشتهرت بعلاج الأطفال، وهي كلها كرامات لم تكن تروى في الماضي.

ثانيا: الوظيفة الاقتصادية:

مازالت أضرحة الأولياء محالا لممارسة الأنشطة الاقتصادية وبخاصة في اليوم المخصص لزيارة كل ولي وأثناء الاحتفال بالموالد، حيث ينتشر باعة المأكولات والمواد الغذائية والحلوى والتسالي، كما تنتشر مراجيح ولعب الأطفال، وقد يلجأ بعض زوار الأضرحة إليها طلبا للنجاح في المشروعات الاقتصادية، وسوف تركز الفقرات التالية على موضوعين يجسدان أهمية الوظيفة الاقتصادية هما: النذور، وإقامة "الخدمات" لخدمة زوار الأولياء.

١- النذور:

يعد كم ونوعية النذور المقدمة حول أضرحة الأولياء انعكاسا للأوضاع الاقتصادية السائدة في المجتمع، وقد أكد خدام الأضرحة تضائل النذور في السنة الأخيرة ٢٠٠٨/٢٠٠٩ - هي بدايات الأزمة الاقتصادية العالمية التي اتسمت بحالة ركود اقتصادي عالمي-. ومع ذلك فقد كشفت ملاحظة الواقع عن حرص زوار الأضرحة على استمرار تقديم النذور النقدية - باختلاف قيمتها - إلى صندوق النذور، أو إلى خدام الضريح أو إلى الفقراء المشاركين في الاحتفال في كافة الأضرحة، أو إلى أقارب الولي - إلى والد الشيخ أشرف-. ومازالت بعض نوعيات النذور مستمرة مثل تقديم المشروبات - كالشاي والقرفة-

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكرم الأولياء نموذجًا

أو بعض المأكولات-كالفتة والفول النابت-. إضافة إلى استمرار تقبيل بعض الزوار لعتبات الأضرحة، مع تشييت باقات الورود ورش العطور حول المقصورة، ومع ذلك برزت نوعيات جديدة من النذور انتشرت في كافة الأضرحة التي تمت زيارتها حديثًا مثل: توزيع قطع الحلوى المغلفة كالشكولاتة والبومبون والبسكويت وعلب المياه الغازية على زوار الضريح مع تخصيص كمية منها لخادمه.

ومن التغيرات التي لحقت بالنذور- كما سبقت الإشارة- أنه أصبح على الناذر أن يقدم نفحة في أول زيارة له وأثناء الدعاء بطلبات محددة أملا في تحقيقها، وهو ما أكده بعض زوار السيدة نفيسة بقولهم "في الزيارة وأنا بدعي لازم أوزع أي حاجة"، وهو ما أكده أيضا خادام ضريح الإمام الشافعي بقوله بأهمية تقديم الزائر لكيس من الحلوى عند وضع الرسالة المتضمنة لأمنيته في مقصورة الإمام، وبعدها بأيام تأتي البشارة وعلى الزائر حينها أن يوفي بنذره في زيارة أخرى، بعد أن يتحقق طلبه. ولعل هذا يعبر عن استعادة أو استدعاء معتقد كان موجودا في الماضي يتلخص مضمونه في تفضيل المضحي تقديم أضحيته "قبل أداء عمل معين أو الدخول في تجارة أو رحلة، بقصد أن يكفل مسعاه بالنجاح، بمعنى أنه يقدم دليل إيمانه وتقواه مقدما ولا ينتظر إلى أن يتحقق غرضه". (الجوهري، محمد. ٢٠١٠ : ٤٧) ودخل ساحات الأضرحة أو خارجها أعيد إنتاج أدوات تقديم النذور - وبصفة خاصة في احتفالية المولد- فقد أصبح الأرز باللبن يوزع معبأ في علب صغيرة من البلاستيك، كما وزعت فتنة اللحم معبأة أيضا في علب مغطاة من (الفوم)، واختلفت سلوكيات متلقي النذور أثناء توزيعها، فبعد أن كانوا يجلسون في أماكنهم ليطوف عليهم مقدم النذر موزعا نذره أصبح الزوار في الدراسة الحالية يتكالبون على مقدم النذر، ويتزعمون منه النذور انتزاعا يصل إلى حد تقطيع ملابسه أو خلعها، وكان أكثر هؤلاء من النساء والأطفال.

مما سبق يمكننا أن نلمس بعض ملامح إعادة إنتاج نوعيات النذور العينية، فقد ظهرت أنواع هي الأيسر في الإعداد - تشتري جاهزة - وفي التوزيع، إضافة إلى تفضيل مقدمي النذور تقديمها معبأة في عبوات بلاستيكية جاهزة، ولعل شدة تكاليف زوار الأضرحة على

انتزاع النذور من مقدميها يعد سلوكا معبرا بوضوح عن تأثيرات الأزمات الاقتصادية العالمية والمحلية، هذا، والنذور التي كان يوفى بها في الماضي بعد تحقق الأمانة، أصبح مقدمها ملزما بتوزيع نفحة في أول زيارة، ثم توزيع النذر بعد تحقق الأمانة وهو ما يعد إعادة لإنتاج الممارسة بحيث تصبح أكثر ملاءمة في ظل الظروف المأزومة اقتصاديا، فضلا عن عملية توزيع النفحات لكل زائر تروج للولي وتعد إعلانا عن كراماته.

٢- الخدمات:

وإذا انتقلنا إلى الخدمات "النصبات" التي تقيمها الطرق الصوفية احتفاء بمولد الولي، فقد تزايدت أعداد المقام منها من قبل هذه الطرق كالبيومية والخليلية والعزمية والأحمدية والرفاعية وغيرها، وتفاوتت أحجامها وتجهيزاتها من مواقد وأوان وأدوات، وقد افترش بعضها الحصر، بينما استخدم آخرون أعدادا من الكراسي، واستمر الشباب العاملون بها في أداء خدماتهم من تقديم للطعام والشراب لزوار المولد، والجدير بالملاحظة إن معظم القائمين على هذه الخدمات قد مارسوا -حاليا- بعض أساليب التسول حين عبروا للمارة عن أهمية أن يقدموا لهم المساعدة بإمدادهم بالمواد التموينية اللازمة من شاي وسكر، ولحوم، أو بأثاثها حتى يتمكنوا من الاستمرار في أداء الخدمة، وهو ما يعبر عن حالة البطالة والفقر التي يعاني منها بعض هؤلاء، مع رغبتهم في إشباع حاجتهم للطعام والشراب وقضاء أوقات للعمل أو للترفيه، وفي نفس الوقت تقدم الدعم المادي لطرقتهم الصوفية، فقد اتضح من أقوال بعضهم إن الطرق الصوفية تفرض عليهم إقامة تلك الخدمات في الموالد بتكلفة تتراوح ما بين ١٥٠ - ٥٠٠ جنيه كشرط لتحديد عضوية الطريقة، إضافة إلى رفع مصروفات استخراج بطاقات العضوية دعما لميزانية هذه الطرق.

ألمحنا في الفقرة السابقة إلى أنه أصبح من أبرز الوظائف الاقتصادية الجديدة لزيارة الأولياء إشباع الحاجة إلى الطعام وهو ما اتضح عند كافة الفئات العمرية، وبصفة خاصة الأطفال. وما أعنيه هنا الأطفال من أبناء الأحياء القاهرية الشعبية الفقيرة، وليسوا المتسولين. فقد عبر عدد كبير منهم - جميعهم يدرسون في المرحلتين الابتدائية، والإعدادية - بأنهم

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا —————
يحرصون على الزيارة حتى يسدوا جوعهم وأنهم في كل مرة غالبا يأتي أهل الخير ليوزعوا
نذورهم، وأكدت طفلة: "كنت مرة جعانة قوي جيت وجم ناس فرقوا عيش ولحمة".
وأضافت أخرى، "ساعات آجي أكنس الضريح فيفرجها ربنا عليه"، وقالت ثالثة: "أدعي
ربنا في أي وقت في الضريح فيفرجها ربنا". وكلها تعبيرات تعكس وتكرس أهمية زيارة الأولياء
بهدف إشباع الحاجة إلى الطعام وبصفة خاصة بين الأطفال الفقراء من تلاميذ المدارس.

ثالثا: الوظيفة الترفيهية والفنية:

مازال زوار الأضرحة يلحؤون إليها للترفيه في أيام الزيارة وطوال العام، ويزداد الأمر
وضوحا أثناء الاحتفال بمولد الأولياء وهو ما سوف يكون موضع اهتمام الفقرات التالية،
والجدير بالملاحظة مولد الأولياء قد حافظت على ثبات مواعيد إقامتها، فتقام مولد السيدة
سكينة ونفيسة، ورقية في شهر جمادى الأول، بينما يأتي مولد الإمام الشافعي والشيخ أشرف
في شهر رجب. وتبدأ احتفالات مولد المجموعة الأولى بمولد السيدة سكينة الذي تتزايد
مظاهره الاحتفالية لتبلغ ذروتها في الليلة الكبيرة في الأربعاء الثاني من الشهر، بتأخير أسبوع
عما كان في الماضي.

واستمرت المظاهر الاحتفالية لمولد السيدة نفيسة لأيام لتبلغ ذروتها أيضا في الليلة
الكبيرة في الأربعاء الثالث من نفس الشهر، يليه مباشرة في الليلة التالية مولد السيدة رقية.
وفي الشهر التالي يأتي مولد الشيخ أشرف، فالإمام الشافعي، واحتفظت أضرحة الأولياء
بالعديد من المظاهر الاحتفالية التي كانت تمارس في الماضي طوال أيام المولد وبصفة خاصة
في الليلة الكبيرة، في مقدمتها زينة جدران الأضرحة ومآذنها وقبابها من الخارج والداخل بعقود
الإضاءة مختلفة الألوان، وزينة الشوارع الجانبية وأحواش المقابر والطرق المؤدية للأضرحة بالألوان
والأعلام، وانتشار ألعاب الأطفال والكبار والأنشطة الفنية.

وعن رواد الموالد- وإن تفاوتت أعدادهم بين مولد وآخر- فإن من أهم ما تمت
ملاحظته مشاركة أعداد كبيرة للاحتفال أتوا من العراق والهند وباكستان وأندونيسيا وماليزيا،
وبصفة خاصة في مولد السيدتين: رقية وسكينة، ومن ماليزيا في مولد الشيخ أشرف-.

وكان من أكبر المظاهر الاحتفالية للمولد في الماضي إقامة موكب الولي أو الزفة في الليلة الكبيرة، وتميز من بينها زفة السيدة سكينه التي كانت تعد مهرجاناً وكرنفالاً شعبياً، كما تميزت زفة السيدة نفيسة، والإمام الشافعي بمواكب الصوفية وبيارقهم، ونماذج المساجد المضاءة وغيرها، وقبل إجراء الدراسة الحالية بنحو ثلاث سنوات تم إلغاء زفة الليلة الكبيرة في موالد مشاهير الأولياء محل الدراسة، وقد أرجع بعض سكان المنطقة هذا إلى مشاجرة كبيرة حدثت أثناء إقامة زفة مولد السيدة نفيسة في نفس ذلك العام، وأرجعه آخرون لأنه تطبيقاً لقانون الطوارئ، وتلبية لتعليمات السلطات الرسمية بمنع التجمعات، وأيا كانت الأسباب فمع هذا المنع فقدت موالد مشاهير الأولياء طقساً أساسياً من طقوسها، وتناقصت أعداد روادها واختلقت كثافتهم بين ضريح وآخر، وحافظ مولد السيدة نفيسة على أعداد كبيرة نسبياً من رواده. وحول بعض تفاصيل هذه الاحتفالية، أنه أثناء الاحتفال وفي أحد الشوارع القريبة من الضريح، كان هناك مسرح شعبي - وهو ما لم تسبق ملاحظته في موالد الأولياء بالحي قديماً- وكان بعض الشباب يستخدمون المكبرات الصوتية للإعلان عن المسرح وجذب المارة مستخدمين في ذلك عدداً من العبارات باللغة العربية الفصحى حيناً مثل "السعر جنيهان في متناول أيدي الجميع"، "توجد أماكن مخصصة للعائلات"، وبألفاظ حماسية وطنية، أو دينية حيناً- للإعلان عن بعض فقرات العرض - مثل: "سبحان الله: البقرة معجزة ربنا"، كما تضمن الإعلان أيضاً غزلاً وألفاظاً نابية أحياناً أخرى.

وداخل سرادق "المسرح" صفت الكراسي ونصب مسرح مرتفع عن مستوى سطح الأرض، وجلس المتفرجون من النساء والرجال والأطفال على كراسٍ متراصة في صفوف أفقية. وصعد إلى المسرح شاب قام بتقديم ثلاث فقرات: الأولى: كانت حواراً فكاهياً مع دمية تمثل شخصية كوميدية ترتدي أفنعة تدعى "شيكو بيكو"، والفقرة الثانية كانت لساحر يؤدي حركاته السحرية، أما الفقرة الثالثة فكانت للبقرة المعجزة وهي بقرة حية بما عيوب خلقية ولها ما يشبه الرأس بالقرب من ذيلها، وظل مقدمها يصيح بأنها معجزة وأنه محفور على رأسها لفظ الجلالة. وعقب انتهاء العرض، فتح باب آخر - غير ذلك المخصص للدخول - وخرج

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا

المتفرجون وكان مقدم البرنامج يصيح وينادي على المارة بأن يسألوا الخروج عن عظمة معجزة البقرة، ولعل ما سبق يشير إلى استعادة وسائل للترفيه عرفتها الاحتفالات الشعبية المصرية في الماضي كالمسارح الشعبية التي أشارت إليها بعض الدراسات مثل: (دراسي وليم لين وأحمد أمين) والتي لم ترصدها دراسة الأولياء في الماضي، كما يشير أيضا إلى استخدام أدوات للترفيه شاع استخدامها مثل: الأقنعة، والشخصيات الكوميديّة، والألعاب السحرية، هذا، وقد تعلقت وبلجت العقلية الشعبية عبر تاريخها أناسا يحملون بعض الإعاقات الجسدية مثل بعض الدراويش والمجاذيب، ورأوا فيهم بركة وإعجازا، وفي حكاية البقرة المعجزة هم يخلعون أهمية على حيوان معاق جسديا، ويرون في الإعاقة إعجازا ومجالا لجذب المارة للفرجة، ولتحقيق كسب مادي، وقد حكى أحد الموجودين خارج المسرح عن بقرة مشاهمة في قريته يلجأ إليها أهالي القرية للاستشفاء حيث يقبلون على شراء حليبها الذي يعتقدون في جدواه في علاج الأمراض.

وإذا كان هذا هو حال أكثر الموالد شهرة، فقد تناقصت أعداد المحتفلين في موالد الإمام الشافعي والسيدة سكينة ورقية، أما الموالد الأقل شهرة كمولد الشيخ أشرف فقد استمر خروج زفة المولد وبنفس تفاصيلها كتقدم والد الولي للزفة ممتطيا جواده، مع حمل الأعلام والبيارق، ومصاحبة راقص التنورة، مع الاحتفاظ بموعدها بداية الزفة - بعد صلاة العصر - وخط سيرها من مقام الشافعي إلى مقام أشرف .

والجدير بالذكر إن التناقص النسبي لأعداد المحتفلين بموالد الأولياء عموما يمكن تفسيره من خلال أقوال بعض زوار الأولياء، وفي ضوء ملاحظة الواقع بأنه يرجع إلى فقدان المولد لجزء من بهجته بفقدان إقامة الزفة، إضافة لأنه بعد أن كان المولد يضم في الماضي لجنة من رجال الشرطة لحراسة وتأمين أوضاعه أصبح المحتفلون يواجهون أول ما يواجهون سيارات الأمن المركزي الضخمة والمحملة بأعداد كبيرة من الجنود مصفوفة في الطرق المؤدية للضريح المحتفى به طوال أيام الاحتفال - في الموالد الكبرى - وتزداد أعدادها في الليلة الكبيرة حيث تغلق جميع الشوارع المؤدية إلى موقع المولد بحواجز حديدية يجرسها رجال الشرطة الذين

ينتشرون في المنطقة بزيمهم الرسمي والمدني، حتى أنني لم أتمكن من دخول منطقة السيدة نفيسة بالسيارة إلا بعد مقابلة الضابط المسئول، وشرح الموضوع له مع إبراز بطاقة تحقيق الشخصية. كما أجريت إجراءات أمنية مشددة لمنع الاحتفال بمولد الإمام الشافعي - كاستجابة لتعليمات الجماعات السلفية - وقد عبر أحد الزوار عن هذا الوضع بقوله: "الحكومة منعت الموالد". هذا، كما عبر آخرون عن خوفهم من مرض إنفلونزا الخنازير الذي أعلن عن انتشاره في هذا العام. إلى جانب منع بعض سكان الحي لذويهم من النساء من المشاركة في احتفالية المولد نظرا لزيادة حوادث التحرش الجنسي، ومنع الأطفال من المشاركة في الموالد خوفا من زيادة حوادث اختطاف الأطفال، والاتجار في أعضائهم، فقد حكى بعض سكان الحي أن سيدة جاءت لأحد محلات السمك في المنطقة واشترت منه سمكا قيمته حوالي مائة جنيه، وتركت بجوار البائع حقيية واستأذنته أن تقضي مشوارا قصيرا للتعود لاستلام السمك والحقيية. إلا أن هذه السيدة تأخرت لساعات واضطر السماك إلى فتح الحقيية ليجد بداخلها ثلاثة رؤوس لأطفال، وذكر أحد الرواه معقبا "فيه ستات كثير ضاعت عيالها". بينما فسر بعض رجال الصوفية تناقص أعداد زوار الموالد بأنه يرجع إلى محاربة "أهل السنة المتشددين" للظاهرة، ومنعهم الناس من الصلاة في الأضرحة، وقد عبر بعضهم عن ذلك مستنكرا بقوله: "عايزين يفرقوا الناس"، "حرام يصلوا هنا؟.. ما يروحوا يجاربو شارع الحرم اللي فيه خمره"، "أبو دقون بيطنعوا في أهل البيت".

رابعا: الوظيفة العلاجية:

مازال زوار الأضرحة يلجؤون إليها لأغراض علاجية، ومازالت بعض الأضرحة تتمتع بقدرات علاجية متخصصة، وأخرى عامة، مع استمرارية الإقبال على استخدام بعض الأشياء الخاصة بأضرحة الأولياء للعلاج، مع وجود ممارسي الطب الشعبي حول الأضرحة وبصفة خاصة في احتفالية المولد.

ومما يدعم استمرارية الوظائف العلاجية إبداع القائمين على الأضرحة لكرامات علاجية جديدة. ومن أمثلة ذلك ما يروى من حكايات لشفاء حالات مستعصية جديدة حول

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا

ضريح السيدة نفيسة فقد حكي خادم ضريحها أنه منذ شهر واحد أتت سيدة من منطقة "المرج" لزيارتها وكانت عاجزة تماما عن السير على قدميها، ويحملها أقاربها، وعقب الزيارة خرجت سائرة على قدميها بسرعة "وكأنها طفلة صغيرة". ولا تتوقف القدرات العلاجية للسيدة على علاج زوار ضريحها فقط وإنما تمتد إلى محبيها أينما كانوا فقد حكت إحدى الزائرات أن لها قريب ظل يدعو للسيدة نفيسة أثناء مرضه وهو راقد في فراشه فذهبت إليه وقامت بعلاجه حتى شفي وقام بتجديد أجزاء من مسجدها.

وقد عرف المعتقد الشعبي طوال تاريخه المجاذيب وال دراويش بملابسهم الرثة، وبأن بعضهم هم أناس يعانون من بعض العيوب الخلقية كالعمى، والصمم، والشلل، أو التخلف العقلي، ولبعضهم "طريقتهم الخاصة في الحياة فهم زاهدون مهملون لمظهرهم وملابسهم ونجدهم حول أضرحة الأولياء وفي المواكب يطلقون دعواتهم وابتهالاتهم مثل "يا حي...مدد...". كما يرددون بعض العبارات غير المفهومة ويأتون أفعالاً غير مألوفة" (الجوهري، محمد. ٢٠١١: ٢٥٢) وهؤلاء مازالوا متواجدين يدعمون الاعتقاد في الأولياء بطريقة أو بأخرى، وما زالوا يتمتعون ببعض القدرات العامة، فقد جلس طفل أبكم بالقرب من ضريح السيدة نفيسة بصحبة والده الذي أكد قدرات ابنه الإعجازية، فهو بركة "بيأشر على الحاجة تحصل" فإذا أشار لأحد المارة بالتوقف فلا بد له أن يتوقف وإلا حدثت له حادثة، وإنه يستطيع أن يفرق بين الإنسان الخير والشرير، فيحب الخيرين وإذا أحب أحدهم قام لتقييله، وإذا قبله لا بد أن يرد الزائر له القبلة بنفحة من النفحات، وهو دائم التحول بين أضرحة الأولياء في كل أنحاء مصر يصاحبه والده الذي ليس له أي عمل سوى مصاحبة ابنه في كافة الموالد.

إلا أن الجديد في مجال المجاذيب هو كثرة أعدادهم - بصورة لافتة للنظر - فقد أصبحوا متواجدين في كافة الأضرحة، وبصفة خاصة في ضريح السيدة نفيسة، والإمام الشافعي. وهم من الجنسين وإن مثلت النساء الغالبية العظمى منهم، وأصبح يبدو على بعضهم مظاهر الشراء، وترتدي النساء منهن ملابس نظيفة بيضاء أو خضراء، أو من اللونين معا، كما ترتدي

بعضهن عددا من الخواتم في أصابع اليدين، وبعض السبح حول الرقبة، ولم يتوقف التجديد عند حدود المظهر بل امتد إلى اكتسابهن قدرات علاجية استمددنها من حبهن وتعلقهن الشديد بالولي المنجذبات إليه، إلى جانب اعتقادهن بأن قدرات الولي العلاجية يمكن أن تنتقل إليهن، فقد ذكر لي أحدهم في ضريح الإمام الشافعي: "اكتبي ورقة وارميها للإمام، ولا تروحي لطبيب" بينما اتجه بعضهم لعلاج زوار الأولياء بأنفسهم مقابل منحهم بعض الحلوى أو العملات النقدية، ومن أمثلة هؤلاء: ١- مجذوبة السيدة نفيسة وينظر الناس إليها باعتبارها "مبروكة" وتحمل بركة السيدة، وتأتي هذه السيدة في اليوم المخصص لزيارة الضريح -يوم الأحد- ويقبل على الجلوس إليها كل من لديه مشكلة صحية - أو اجتماعية - فتصف لهم إحدى وصفاتها العلاجية فقد تصف للبعض أعشابا محددة يجلبها من عطار مشهور (حراز)، أو قد تصف ممارسات تجربها المرأة لزوجها حتى ينجب، أو تكتب لها على مسبحة تمنحها إياها فلديها وصفة لكل حالة- نظير مقابل مادي-. وأكدت إحدى الزائرات أنها تعرف سيدة ظلت بلا إنجاب لمدة عشرين سنة، وبعد زيارة هذه المجذوبة أنجبت بالفعل. والجدير بالذكر أن هذه المجذوبة تعطي رقم هاتفها المحمول لكل من يلجأ إليها، فهي يمكنها الإداء بوصفاتها والتعامل مع مريديها من خلاله أيضا. ٢- مجذوبة الإمام الشافعي وهي تشتهر بقدرتها على رقي الأطفال لحمايتهم، ولعلاجهم، وهي تأتي بحركات مترنحة أثناء جلوسها، وقد صاحت في إحدى الزيارات بقولها: "اديني الختم يا شافعي أنا جيك من عند السيدة زينب هي إدتهوني، الله أكبر يا حي يا قيوم" وانطلقت زغاريد النساء من حولها، وهو ما يعبر عن أحد المعتقدات الشعبية في حرص هؤلاء المجاذيب - وغيرهم - على الحصول على "الختم" أو التصريح من أحد كبار الأولياء ليمنحوهم من خلاله البركة والتمتع بقدرات خارقة تفوق قدرات البشر.

خامسا: الوظيفة الاجتماعية:

تعبير ملاحظة الواقع عن استمرار الاعتقاد في جدوى زيارة الأضرحة لحل بعض المشكلات الأسرية أو لشكوى الظلم أو لمباركة الزواج، واللافت للنظر حديثا - على الرغم

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا

من وجوده في الماضي بكثافة أقل-الإقبال الملحوظ من طلبة المدارس وبصفة خاصة الإناث، وأيضاً الشبابات على زيارة الأضرحة، فقد انتشر جلوس تلاميذ المدارس بين جنبات الأضرحة قبيل موسم الامتحانات، وبسؤال بعضهم عما إذا كان جلوسهم في بيوتهم للاستذكار أفضل من مجيئهم للأضرحة قبيل الامتحان بأسبوع واحد، أجابت طالبة: "لما آجي وأزور جعفر أذاكر وأنجح"، وأضافت جدة كانت بصحبة بعضهم: "لما يزوروا حينجحوا، وهم كمان زاروا النهاردة السيدة عائشة، ونفيسة، ورقية، وسكينة"، وهو ما يعبر عن استمرار الاعتقاد في جدوى الزيارة، وأيضاً أهمية زيارة عدد من الأضرحة في نفس اليوم أملاً في تحقق الأمنيات ومنها النجاح، كما يؤكد دور الجدد وكبار السن في تدعيم بقاء المعتقد واستمراره.

أما الزوار في سن الشباب وبخاصة الإناث فقد أسفرت مقابلة بعضهن عن خوفهن من تأخر الزواج وعدم وجود فرصة زواج مناسبة، وقلة فرص العمل أو البحث عن فرصة مناسبة هي في مقدمة أسباب قدوم الشبابات عموماً للزيارة، ومازالت ظاهرة إرسال الرسائل لضريح الإمام الشافعي مستمرة مع إضافة وضع صور من الشهادات الدراسية في المقصورة لراغبي الحصول على وظائف، ووضع مبلغ من المال "كنفحة" داخل المظروف الذي يحتوي على الرسالة المستعجلة بالطلبات، كما عبرت زائرات للأضرحة أكبر سناً بأن المشكلات الأسرية مع الزوج أو الأبناء هي ما دفعهن لزيارة الأولياء، ويفضل كل زائر زيارة الولي الذي يعتقد في قدراته، وهو ما يعبر عن استمرار اللجوء للأضرحة أملاً في حل بعض المشكلات الاجتماعية.

سادساً: الوظيفة السياسية:

مازالت احتفالية المولد كما كانت في الماضي تحفل بصور ولافات مختلفة الألوان والأحجام تدعو لشخصيات تابعة لبعض الأحزاب السياسية، كما استمرت بعض الشخصيات السياسية في إقامة السراقات لتوزيع النفحات، وللدعاية لأصحابها، كما أقامت الطرق الصوفية سراقاتها وخدماتها للدعاية لها، ولاستضافة بعض أصحاب المراكز السياسية، واستمرت زيارة كبار الشخصيات للأضرحة فقد لفت انتباهي أن أحد خدام السيدة نفيسة

ظل يدعو لي بعد إعطائه مبلغا من المال "إنشاء الله حتبي رئيسة جامعة"، وقد تبدد تعجبي من عبارته بعد أن علمت من بعض زوار السيدة أن رئيس إحدى الجامعات المصرية المرموقة يحرص على زيارة مقامها باستمرار.

سابعا: ميلاد ولي:

لم يتوقف بقاء واستمرار الظاهرة على استمرار أداء وظائفها، ولا على إعادة إنتاج بعض عناصرها فقط لتواكب تغيرات المجتمع الذي تمارس فيه، وإنما تدعم بتفريخ وميلاد أولياء جدد وهو ما يؤكد ويدعم استمرار وبقاء الظاهرة على أرض الواقع، فأثناء إجراء هذه الدراسة سألني بعض سكان الحي عما إذا كنت قد سمعت "بالسيدة نبيلة"، وكانت هذه هي البداية لتتبع حكايتها، فسألت عن موقع ضريحها في منطقة المقابر ويقع في طريق تم تجديده وسمي باسمها، وعلى ناصيته لوحة رخامية محفور عليها اسمها ونسبها، وبعد الوصول وجدت ضريحا فخما من الرخام بداخله مقصورة تحيط بالقبر الذي تم تغطيته بكسوة من المخمل الأسود الفاخر المطرز بآيات قرآنية من خيوط السيرما الذهبية، ومحاط بزرع أخضر نضر، وبداخل الضريح اثنان من المقاعد الوثيرة الفاخرة، وراديو ضبط على إذاعة القرآن الكريم.

أما عن حكاية السيدة نبيلة فقد كانت تمتلك فندقا شهيرا باسمها في حي المهندسين، وقيل عنها أنها كانت إنسانة صالحة وقارئة للقرآن، وتوفيت منذ نحو خمس عشرة سنة، وكان زوجها شخصية مرموقة وصديقا لشخصية سياسية مصرية ذات شأن، ومن ثم قُدمت كافة التسهيلات لبناء هذا الضريح، وحافظ الزوج على إقامة مولد سنوي لزوجته في ذكرى وفاتها لمدة عشر سنوات حتى توفاه الله، وبعدها لم يبق لها مولد، وبسؤال سكان المنطقة التي يقع بها الضريح عن مكانتها لديهم أكد معظمهم أنهم لا يعدونها من الأولياء، ومع ذلك فقد شاهدت بعض المارة يأتون لزيارتها، ويؤدون بعض ممارسات الزيارة في ضريحها، وهو ما يؤكد مولد ولي جديد ساهم في ميلاده بعض من ذوي المراكز السياسية، استطاعوا استخراج التصاريح بالدفن والبناء، وتحديد ورصف الطرق، وتذليل كافة الإجراءات والصعوبات، وإقامة احتفالية المولد لسنوات طويلة، وإذا كان بعض المحيطين بالضريح حاليا يدركون كنهه، فإن

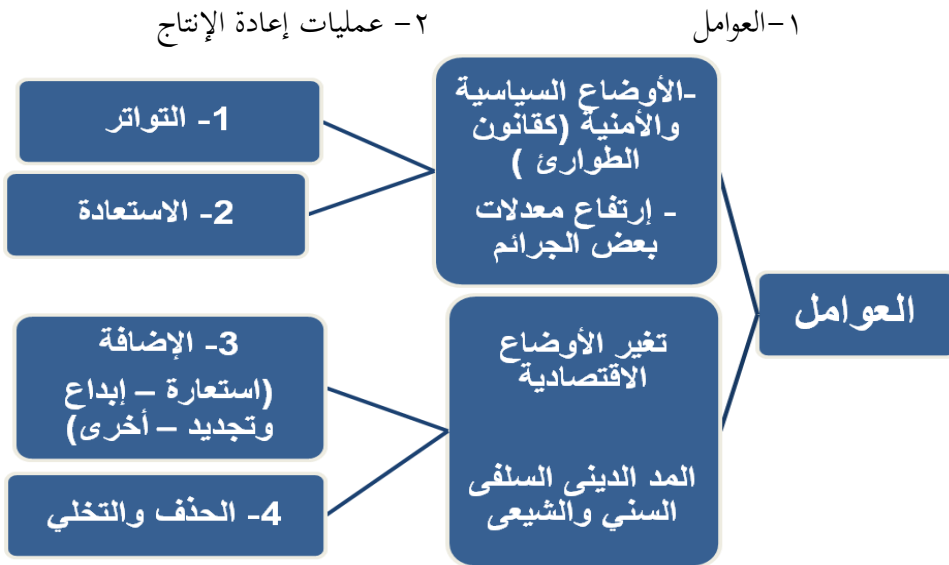
إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا _____
 هذا لن يمنع آخرين من الاعتقاد في ولاية السيدة نبيلة يدفعهم إلى ذلك فخامة المكان
 وعظمته من جانب، كما يدفعهم تفضيل بعض زوار الأولياء زيارة أكبر عدد من الأضرحة في
 نفس اليوم للحصول على أكبر قدر ممكن من البركة. وقد يتحقق - مصادفة - لأحد أو بعض
 هؤلاء بعض أمانهم بعد الزيارة فيدعم لديهم الاعتقاد بالولاية وبالكرامة وبالتالي يدعم ميلاد
 ولي جديد.

نتائج واستخلاصات:

تدعم بقاء ظاهرة تكريم الأولياء في مصر بتواتر ممارسة رواد الأضرحة لعناصر أساسية
 للظاهرة مثل الحرص على الزيارة، والاحتفال بالموالد، وغيرها، وضمنت الظاهرة بقاءها من
 خلال استمرارها في أداء مختلف وظائفها الدينية والاقتصادية والترفيهية والفنية والعلاجية
 والاجتماعية والسياسية، وإعادة إنتاج بعض عناصرها، وتفريخ أو ميلاد أولياء جدد بحكايات
 جديدة تناسب والسياق الاجتماعي الثقافي العام.

ويوضح الشكل رقم (١) أهم عوامل وعمليات إعادة إنتاج بعض عناصر الظاهرة، وهو
 ما كفل لها هذا البقاء والاستمرار.

شكل رقم (١): يوضح أهم عوامل، وعمليات إعادة الإنتاج



والجدير بالذكر إن بعض هذه العوامل قد لعبت دورا في تقليل أعداد المترددين على أضرحة الأولياء والمحتفلين بموالدها بينما كان لبعضها الآخر تأثير في تزايد أعداد هؤلاء، وجاء في مقدمة العوامل المؤدية إلى تناقص أعداد رواد الأضرحة:

١- **الأوضاع السياسية والأمنية:** تأكيدا لما ذكره إدوارد شيلز من أن "تغير التقاليد المستقرة يحدث نتيجة للقوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية" (شيلز، إدوارد. ٢٠٠٤: ٣٣٩) أكدت الشواهد الميدانية أن صدور قانون الطوارئ، وفرض إجراءات أمنية مشددة أثناء الاحتفال بالموالد، ومنع إقامة مواكب الطرق الصوفية (الزفة) في الموالد الشهيرة، ومنع تجمعات المحتفلين بالأولياء إلى جانب صدور بعض القرارات الوزارية الرسمية ومنها القرار الذي أصدرته وزارة الصحة والسكان بمنع الاحتفال بموالد الأولياء خوفا من انتشار إنفلونزا الخنازير كانت كلها قرارات سيادية رسمية أدت إلى تناقص أعداد رواد الأضرحة والمحتفلين بالموالد.

٢- **ارتفاع معدلات أنواع من الجرائم:** مع انتشار حالات التحرش الجنسي، وحوادث خطف الأطفال، والاتجار في أعضائهم مُنع عدد كبير من النساء والأطفال - من قبل ذويهم - من المشاركة في احتفاليات الموالد، وفي مقابل ما سبق كان لعوامل أخرى أثر في تزايد أعداد زوار الأولياء جاء في مقدمتها:

أ. تدهور الأوضاع الاقتصادية وارتفاع معدلات البطالة وزيادة حدة الفقر: فقد لعبت الأوضاع الاقتصادية أدوارها على عدة مستويات فعلى مستوى الأفراد أدت زيادة حدة الفقر إلى لجوء الكثيرين من الفقراء وبصفة خاصة الفئات الأكثر ضعفا في المجتمع كالإناث والأطفال إلى الأضرحة طلبا للمساعدة، وسد بعض الاحتياجات الأساسية كالحاجة إلى الطعام، وتزايدت أعداد المتسولين بين الأضرحة، كما أثر تدهور تلك الأوضاع أيضا على مستوى الهيئات المهمة بالظاهرة كمشيخة الطرق

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا

الصوفية التي وضعت شروطًا جديدة لتجديد عضوية أعضائها- كشرط إقامة الخدمات- ورفعت رسوم تجديد بطاقات العضوية وغيرها في محاولة لتحقيق المزيد من الدخل.

ب. المد الديني السلفي السني، والشيعي: إذا كان للمد الديني السلفي السني تأثير على تناقص أعداد زوار بعض الأضرحة، وإعادة إنتاج بعض طقوس الزيارة وتطبيق لمنع الاختلاط بين الجنسين داخل الأضرحة وتخصيص أبواب لدخول النساء، وأماكن محددة لتواجدهن داخل الأضرحة، والتخلي عن بعض شروط الزيارة" ربما كنتيجة لفحص واختبار أنصار الظاهرة والقائمين على رعايتها لبعض تفاصيلها، ومحاولة تصحيحها وسد ثغراتها" (شيلز، إدوارد. ٢٠٠٤: ٣١٦) وجعلها أكثر اتساقًا فيما بينها، وأكثر اتساقًا مع السياق العام المتأثر بالسلفية، فقد كان للمد الديني الشيعي أثره المختلف حيث تزايد الاهتمام بإحياء وتجديد الأضرحة، وبالتالي تزايدت أعداد زوار بعض الأضرحة بوجه عام، ومن الأجناب ومن جنسيات عُرف عنها انتماءاتها الشيعية بوجه خاص سواء في أيام الزيارة أو في الموالد.

وعلى الرغم من تنوع تأثيرات العوامل السابقة_ بين تزايد أو تناقص أعداد زوار الأولياء_ إلا أنها كلها عوامل أدت إلى إعادة إنتاج بعض عناصر وتفصيل الظاهرة بفعل عمليات مختلفة، " فتراث أية أمة لا يتخلق مرة واحدة، ولكن شأنه شأن أي كائن حي، يتطور وينمو ويتحول، ويحافظ على كثير من مخزونه الموروث". (الجوهري، محمد. ٢٠٠٧: ٥) وقد جاء في مقدمة عمليات وآليات إعادة الإنتاج ما يلي:

١- التواتر أو التناقل: تواترت طقوس وممارسات كثيرة للظاهرة نشير إلى بعض نماذج منها فما زال بعض زوار الأضرحة يفضلون زيارة الأضرحة القريبة أو البعيدة، والجمع في نفس الزيارة بين زيارة عدد من الأضرحة التي يقومون بزيارتها طوال أيام الأسبوع وبصفة خاصة في اليوم المفضل لزيارة كل ولي، مع تواتر أداء الطقوس الخاصة بأداب الزيارة

وأهمها الدعاء الذي استمر أحياناً بنفس نص الدعاء النمطي، وما زالت حكايات كرامات الأولياء التي كانت تروى في الماضي مستمرة حية يتواترها خدام الأضرحة، وبعض من روادها، وتواترت الطقوس الدينية كالحضرات وحلقات الذكر، كما استمرت الظاهرة في أداء مختلف وظائفها الدينية والاقتصادية والترويحية والعلاجية والاجتماعية والسياسية مع إعادة إنتاج بعض عناصرها وتفصيلها.

والجدير بالذكر، إن وجود بعض الفئات الاجتماعية، وأداءها لعملها "هو بمثابة زرع للتراث وعمل على نشره بين فئات جديدة". (الجوهري، محمد. ٢٠١٠ ط ١: ٣٣١) وقد أكدت الدراسة الميدانية أن الفئات التي تحقق لها الظاهرة قيمة أو نفعاً أو وظيفة قد لعبت دوراً أساسياً في تواتر وزرع عناصر الظاهرة؛ فهي فئات مستفيدة وحريصة على بقاء الظاهرة حية في نفوس وقلوب رواد الأضرحة، وقد جاء في مقدمة هؤلاء خدام الأضرحة، وأعضاء الطرق الصوفية، والمعتقدون في الأولياء، وأقاربهم، وبصفة خاصة كبار السن، إلى جانب بعض من ذوي النفوذ والمكانة.

وفي محاولة التعرف على أهم آليات التواتر تبين أن الإعلان جاء في مقدمتها، وقد يكون الإعلان: أ) قولاً شفاهياً: يتم من خلال الحكيم مثل: ترديد الكرامات حول الأضرحة، أو إطلاق الزغاريد إعلاناً من الزائر عن تحقق أمنيته، أو ترديدًا لعبارة تدعم كرامة لأحد الأولياء أو لإحدى المجدوبات "مدد يا ست .."

٢- ممارسة: كتوزيع النفحات، وتقديم النذور النقدية والعينية لزوار الولي، وخدمته، وغيرهم إعلاناً عن تحقق الكرامة أو المعجزة .

الشكل رقم (٢): يوضح أهم آليات التواتر



٢- الإضافة: "تنطوي عملية الإضافة على مزيج من الوعي والقصدية والاختيار من ناحية، والتلقائية من ناحية أخرى، وذلك لإمداد أساليب الحياة بعناصر ثقافية جديدة، وتتجلى هذه العملية في نمطين هما: الاستعارة والإبداع". (المصري، سعيد. ٢٠١٢: ٣٦٩) وقد كشفت الدراسة الحالية عن إضافة عناصر للظاهرة سواء بالاستعارة، أو بالإبداع أو بغيرهما وهو ما سوف يتضح فيما يلي:

أ) الاستعارة: استعار مقدمو النذور نوعيات جديدة منها لتوزيعها على زوار الأولياء كالحلوى الجاهزة والمغلفة والتي تعد الأسهل تداولاً، كما استعاروا أدوات للطعام - أسهل استخداماً - ورقية أو بلاستيكية أو من الفوم للاستخدام لمرة واحدة، وهي في الحالتين سلع غذائية أو أدوات متداولة في الحياة اليومية، شاع استخدامها لدى فئات أخرى في المجتمع وفي مناسبات متنوعة بدءاً من الحفلات وأعياد الميلاد، وانتهاءً ببيعة الأطعمة الشعبية - كالكشري وغيره-. كما استعار المجاذيب تفاصيل أزيائهم ومظهرهم الذي أصبح أكثر أناقة وتألقاً، من محاكاة لمظهر فئات ارتبطت بالدين الإسلامي الرسمي كالهداية، أو بالتدين الشعبي كمشايع الطرق الصوفية، ولا تتوقف المحاكاة على الشكل والجوانب المظهرية بل

تعدتها إلى محاكاة المضمون أيضًا كمحاكاة المجازيب للوظيفة العلاجية للأولياء المنحذبين إليهم.

وفي محاولة لاستخلاص أهم آليات الاستعارة تبين أنه تأتي في مقدمتها:

١- البحث عن الأيسر والأسرع والأوفر: مثلما يحدث في حال إضافة نوعيات جديدة من النذور (الجاهزة)، أو أدوات جديدة لتقديمها.

٢- المحاكاة الثقافية: سواء أكانت محاكاة لشكل أو لمضمون فئات اجتماعية أخرى بالمجتمع.

ب) الإبداع والتجديد: "يعتمد التجديد على العملية الإبداعية للإنسان، وعلى استعداد المجتمع لقبول ما تثمر عنه هذه العملية الإبداعية أو تبنيه لها" (الجوهرى، محمد. ٢٠٠٧: ٣٠) "فالإبداع الثقافي هو قدرة الجماعة ككل على إثراء مخزونها الثقافي بالتجديدات" (سميث، شارلوت سيمور. ١٩٩٨: ٢٣٠) التي يقدمها أو يبدعها فرد بعينه ينتمي إلى هذه الجماعة وبصفة خاصة من المستفيدين من بقاء الظاهرة حيث "يستلهم الصور التعبيرية للجماعة التي يعيش بينها، ويخلق مع ذلك شيئًا جديدًا لم يكن موجودًا هكذا من قبل" (الجوهرى، محمد. ١٩٩٨: ١٣٧) فلا يخلو إعادة إنتاج عناصر الظاهرة من محاولات للإبداع والتجديد فقد أبدع القائمون على الأضرحة كرامات جديدة يروونها لزوار الولي، كما أبدعوا قدرات إعجازية جديدة أحقوها بشخصية الولي دمجوا في إبداعها بين حكايات كرامات أولياء آخرين، وقصص بعض الأنبياء "وبين أعمال للخيال باعتباره أعظم عوامل تغيير التراث" (شيلز، إدوارد. ٢٠٠٤: ٣٢٠-٣٢١). وقد تشمل الإضافة بالتجديد أيضا توسيع نطاق الممارسة ليشمل عناصر أو فئات أخرى مثل توسعة نطاق تبجيل الإعاقات الجسدية لدى الإنسان، ونقلها إلى الحيوان في مثال البقرة المعجزة.

ولا تقتصر الإضافة من خلال التجديد على إضافة عنصر أو أكثر من عناصر التراث الثقافي إليه، أو توسعة مجاله— كما اتضح فيما سبق— وإنما أكدت لنا دراسة الواقع إمكانية إضافة مركب ثقافي برمته طالما هو موجود ومتسق والسياق الثقافي العام. وأعني هنا تفريخ أو

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا
إضافة أو صناعة أولياء جدد تبنى لهم أضرحة ويحتفل بموالدهم ، ويتوقف بقاؤهم أو موتهم
على ما سوف يقدمونه لرواد أضرحتهم على أرض الواقع، استنادًا إلى وجود المعتقد نفسه من
جانب، ووجود أضرحة أخرى يُقبل على زيارتها زوار الأولياء من جانب آخر. وفي محاولة
لاستخلاص أهم آليات الإبداع والتجديد نجد في مقدمتها:

١- الاستلهام والابتكار: كإبداع كرامات جديدة مستلهمة من قصص ومعجزات
الأنبياء والرسل من مختلف الأديان، وحكايات أولياء آخرين - كما حدث في إبداع كرامات
علاجية جديدة للسيدة نفيسة، والشيخ أشرف.

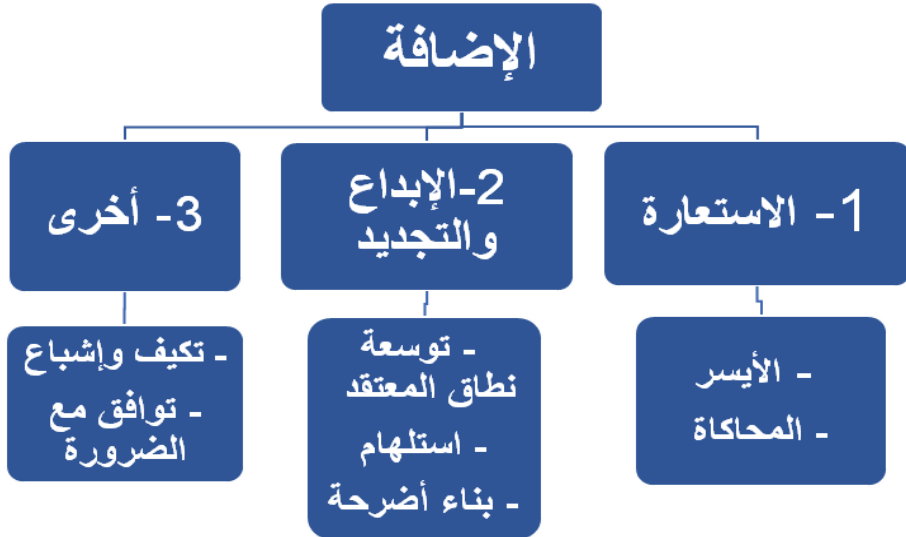
٢- بناء أضرحة جديدة: وهي آلية مستمرة، فقد تبين من الدراسة الميدانية بناء
أضرحة جديدة لأولياء مؤشرين - مثلما هو في حالة الشيخ أشرف حيث إقامة أضرحة
جديدة داخل مصر وخارجها، أو لأولياء جدد مثل بناء ضريح السيدة "نبيلة".

إضافة لما سبق، كشفت الدراسة الميدانية عن إضافة سلوكيات وممارسات جديدة
للظاهرة أصبحت تمارس حول الأضرحة، على الرغم من كونها لا تعد استعارة أو إبداعًا،
أهمها بعض السلوكيات المرتبطة بتلقي النذور والتي لم يعرفها زوار الأولياء في الماضي، فبعد أن
كان متلقو النذور يجلسون في أماكنهم احترامًا لضريح الولي ومقامه، أصبحوا يتصارعون من
أجل الحصول على النذور وانتزاعها من مقدميها، وهو ما تزايد مع زيادة حالات الفقر في
محاولات مستمرة لإشباع الحاجة إلى الطعام، وزيادة معدلات التسول والبطالة. هذا كما
أضيفت إلى أعداد الخدمات (النصبات) المقامة حول الأضرحة في الموالد، أعدادا أخرى كبيرة
تقيمها الطرق الصوفية حيث تحولت تلك الخدمات من كونها عبئا على من يقيمونها إلى مجال
لكسب العيش حيث السعي من قبل مقيميها على طلب احتياجاتهم المالية، والعينية اللازمة
لإقامتها من زوار الأولياء.

وفي محاولة لتحديد آليات ما سبق، نجد أن الإضافة كعملية لإعادة الإنتاج لا تقف
فقط عند حد كونها استعارة أو إبداعا، وإنما قد تكون:

- ١- تكييفًا وإشباعًا لحاجة ضرورية: مثل صراع متلقى النذور- من الفقراء- من أجل الحصول عليها، وتزايد أعداد زوار الأولياء من تلاميذ المدارس بحثًا عن الطعام.
- ٢- توافقًا مع الضرورة: بمعنى الاستفادة من تطبيق بعض القرارات بما يحقق مصلحة أو فائدة -كاستفادة مقيمي الخدمات من إقامتها بعد أن كانت تمثل عبئًا ماديًا يعانون منه- وهو ما أسفر عن زيادة أعداد الخدمات المقامة في الموالد وإعادة إنتاج بعض تفاصيلها لتصبح أكثر ملاءمة لمقيميها بعد أن أصبحت مصدرًا للرزق والتريح من جانب، وبجبالا لاستيعاب أعداد أكبر ممن يعانون من البطالة من جانب آخر.

الشكل رقم (٣): يوضح الإضافة وأهم عملياتها وآلياتها

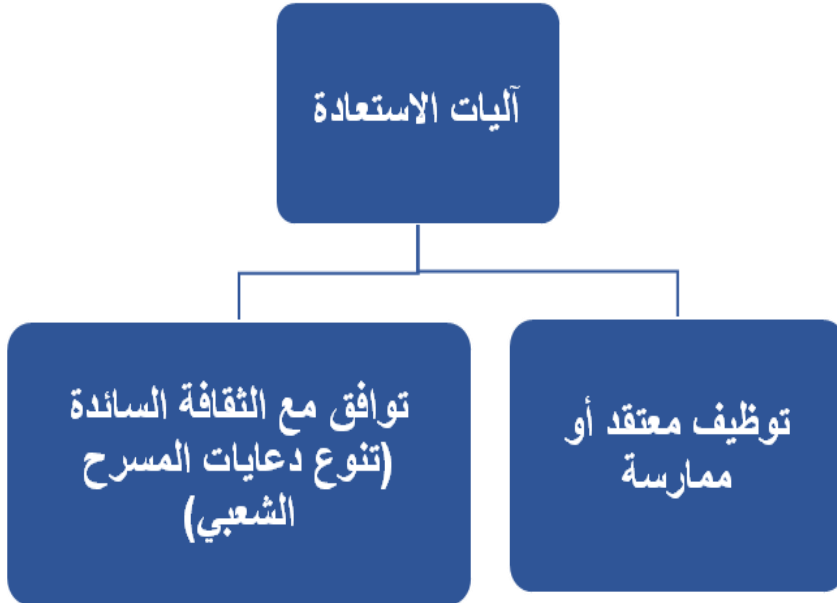


الاستعادة: تمت استعادة بعض الممارسات والطقوس التي كانت تمارس في الماضي، ومنها تقديم نفحة في أول زيارة لزوار الأضرحة الراغبين في تحقيق أمنيات محددة، وقد يكون ذلك استعادة لمعتقد قديم يقضي بتقديم الأضحية، أو دليل إيمان الزائر مقدمًا، فبعد أن كان الزائر يكتفي في الماضي بتقديم النذر بعد تحقق أمنيته أصبح مطالبًا بتقديم النفحة عند زيارته الأولى، ثم الوفاء بالنذر عقب تحقق الأمنية ورغبة في البحث عن سبل جديدة للترفيه، والكسب المادي (معًا) استعادت المسارح الشعبية حضورها في الموالد كمجال ترفيهي وفني،

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا _____
فقد كانت تقام في الماضي حيث جاء ذكرها في مؤلفات وليم لين، وأحمد أمين، بينما لم
ترصدها الدراسة السابقة للأولياء، وهو ما يؤكد "إمكانية فناء التراث وإمكانية بعثه من
جديد طالما هو محفوظ في ذاكرة المجتمع". (شيلز، إدوارد. ٢٠٠٤ : ٣٨٦) وحول أهم
آليات الاستعادة تبين أنهما:

توظيف لمعتقد أو ممارسة: مثل تقديم النفحة مقدما في أول زيارة استعادة لتقديم دليل
الإيمان مقدما، أو استعادة المسرح الشعبي كمجال لكسب العيش، وللترفيه.
توافق مع الثقافة السائدة: وذلك ضماناً لقبول وتداول ما تم استعادته بين مختلف
الفئات الاجتماعية، مثال ذلك: إعلان مقيمي المسرح الشعبي عنه مستخدمين ألفاظاً
حماسية وطنية، وأخرى تتضمن غزلاً وألفاظاً إباحية، وغيرها ألفاظاً دينية، مع الإعلان عن
أماكن مخصصة للعائلات وكلها دعايات تتسق والمزاج الشعبي لفئات مختلفة من زوار الأولياء،
كما تتسق وأوضاع المجتمع.

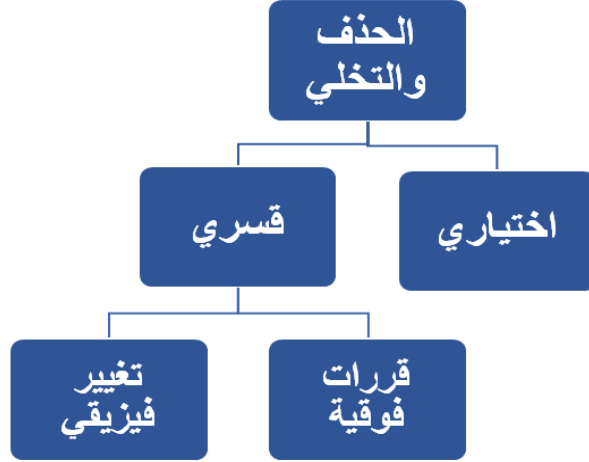
الشكل رقم (٤): يوضح أهم آليات الاستعادة



أكدت الفقرات السابقة على أهمية دور التواتر والاستعادة والإضافة في إعادة إنتاج التراث، ولا يعني ذلك إهمال أو تجاهل عمليات التخلي والإسقاط والهجر لبعض العناصر الأخرى، فالتراث ليس إضافة مستمرة لا تنقطع. وهو ما أكدته دراسة الواقع واتضح فيما يلي:

٤- الحذف والتخلي: كل إضافة تمت سواء بالاستعارة أو بالإبداع أو بغيرها، قد يقابلها تخلي زوار الأولياء عن بعض عناصرها وتفاصيلها، فقد تخلوا عن بعض نوعيات النذور، وطرق وأدوات التقديم التقليدية وغيرها، كما تخلوا عن أداء بعض الطقوس التي كانت مهمة في زيارة أضرحة بعض مشاهير الأولياء كالسيدة نفيسة، والإمام الشافعي في مقدمتها الدوران حول المقام أثناء الزيارة وذلك نتيجة لوضع حواجز فاصلة بين أماكن زيارة النساء والرجال. وحذفت بعض الطقوس والممارسات الاحتفالية - استجابة للتعليمات الأمنية- كحذف أو إلغاء زفة الليلة الكبيرة من موالد مشاهير الأولياء، بينما استمرت في الموالد الأقل شهرة. وفي محاولة لتحديد آليات ما سبق، فإن "الحذف" قد يكون: أ) اختياريًا: يتم من خلال إسقاط أو هجر زوار الأولياء لبعض العناصر أو الممارسات التي لا تتلاءم والواقع الذي يعيشونه. ب) قسريًا: ناتجًا عن: ١- قرارات فوقية، وتغيير قوانين، وإصدار قرارات - كإلغاء الزفة من موالد مشاهير الأولياء، وانسحاب أو انحسار الممارسة من مجالات أو مستويات، واستمرارها في أخرى كانسحاب زفة المولد من موالد مشاهير الأولياء وبقائها في الموالد الأقل شهرة-. ٢- تغييرات فيزيقية: قد تؤدي التغييرات في تفاصيل مكان الضريح إلى فقدان الممارسات لبعض شروطها - كالتخلي عن الدوران حول المقام، أو التخلي عن توجه الزائر أثناء الدعاء إلى جهة القبلة - وفي كل الحالات يعاد إنتاج الممارسة، ويتم تكييفها حتى تصبح أكثر ملاءمة للواقع المعاش.

الشكل رقم (٥): يوضح عملية الحذف والتخلي وآلياتها



صورة رقم (١): ضريح السيدة نفيسة



نلاحظ زينة الجامع بعقود الإنارة والأعلام الملونة في أيام الاحتفال بمولدها
صورة رقم (٢): الممر المؤدي للباب المخصص لدخول النساء



يقع الممر على يسار الجامع، بينما يقع باب الدخول على اليمين في نهاية الممر الذي اصطف في جهته
اليسرى عدد من الباعة الجائلين.

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا

صورة رقم (٣): سيارات الأمن المركزي لحماية المولد ورواده



تصطف سيارات الأمن المركزي في الشوارع المؤدية للضريح طوال أيام الاحتفال.

صورة رقم (٤): إحدى الخدمات (النصبات) المنشرة حول الأضرحة



تزايدت أعداد الخدمات التي تقيمها مختلف الطرق الصوفية لتوفير الطعام والشراب احتفالًا بالمولد بعد أن أصبحت مجالًا للتكسب وزيادة الدخل

صورة رقم (٥): المسرح الشعبي



استخدام مكبرات الصوت للإعلان عن المسرح وأهم فقراته، وتوضيح صورة البقرة المعجزة

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا

صورة رقم (٦): ضريح السيدة نبيلة



نموذج يعلن عن ميلاد ولي، كما قد يعكس حجم الفخامة، والسلطة والإمكانات المادية

قائمة المراجع

- ١- إدجار، أندرو. وسيد جويك، بيتر. (٢٠٠٩). موسوعة النظرية الثقافية، المفاهيم والمصطلحات الأساسية. المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة.
- ٢- الجوهري، محمد. (٢٠١١). موسوعة التراث الشعبي العربي، المعتقدات والمعارف الشعبية، مجلد ٥. الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الدراسات الشعبية.
- ٣- _____ (٢٠١٠). علم الفولكلور، مجلد ٢، دراسة المعتقدات الشعبية. مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- ٤- _____ (٢٠١٠). علم الفولكلور، مجلد ١، الأسس النظرية والمنهجية. مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- ٥- _____ (٢٠٠٧). التراث الشعبي في عالم متغير، دراسة في إعادة إنتاج التراث. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١.
- ٦- المصري، سعيد. (٢٠١٢). إعادة إنتاج التراث الشعبي. المجلس الأعلى للثقافة.
- ٧- سيمور سميث، شارلوت. (١٩٩٨). موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية. المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة.
- ٨- شكري، علياء. (١٩٩٨) دراسات في علم الفولكلور. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١.
- ٩- شيلز، إدوارد. (٢٠٠٤). التراث، تأصيل وتحليل من منظور علم الاجتماع. ترجمة محمد الجوهري وآخرون. مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- ١٠- عثمان، سعاد. (٢٠١٤) النظرية الوظيفية في دراسة التراث الشعبي، دراسة ميدانية لتكريم الأولياء في المجتمع المصري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الدراسات الشعبية.

إعادة إنتاج التراث الثقافي غير المادي ظاهرة تكريم الأولياء نموذجًا
